تقديم

المـرأة :

ذلكم الودود الولود منبع الرحمة ومورد الحنان • أنبت الله عودها الأخضر الوارف ، الزاهر المزهر ، الندى الظليل وسقاه من فيض رحمته ووافر محبته وكريم فضـــله وعظم منته مما جعل هذا الجمال الخلقى والخلقى مبعث النعمة وجماع الرحمة وليس أقدر على تصـــوير هذه الرحمة الظليلة الناعمة الوفية فى قلب الأم ــ ليس أقدر على تصـــوير ذلك مما قالته الاعرابية لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يوم مر المسلمون بقوم وفيهم امرأة تحصب تنورها ومعها ابن لها ، فاذا ارتفع وهج التنور تنحت بابنها ، فأتت النبى ــ صلى الله عليه وســـلم ــ فقالت : أنت رسول الله ؟ قال : نعم • قالت : بأبى أنت وأمى ، أليس الله بأرحم الراحمين ؟ قال : بلى قالت : أليس الله أرحم بعباده من الأم بولدها ؟ قال : بلى قالت : فان الأم لا تلقى ولدها فى النـــار • فأكب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يبكى ثم رفع رأسه اليها وقال : ان الله لا يعذب من عباده الا المارد المتمرد الذى يتمرد على الله ويأبى أن يقول : لا اله الا الله •

هذه رحمة لا تعادلها رحمة بشرية عادية انها رحمـــة الأم على رضيعها رحمة من رحمة الله تعالى • ورحمة الله وسعت كل شىء ••••• وليست رحمة الأم رحمة مرتبطة بردفعل أوموقوتة بوقت ، أو منتظـــرة عرفان أحد ، يكفيها ما قاله فيها سيد المرسلين ، فقد جعلها مثالا اتخذ منه ما يقرب به الى أصحابه رحمة ربه سبحانه وتعالى •

يوم قدم سبى على النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالمدينة،فاذا امرأة منهم قد تحلب ثديها ، اذا وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأصحابه : أترون هذه طارحة ولدها فى النار ؟ قالوا : لا ، وهى تقدر ألا تطرحه . فقال : الله أرحم بعباده من هذه بولدها(١) .

هذه الرحمة ليست مرتبطة بعطاء ما بل هى العطاء الذى لا يدانيه أى عطاء ، عطاء فى الرخاء والشدة فى الصغر والكبر ، فى كل وقت ومع كل الظروف والمتغيرات .

ولسنا ننسى ما كان من شأن الصحابى الذى قاسى عند خروج روحه ، ولم يستطع النطق بالشهادة وحوله أهله وذووه يلقنونه الشهادة ، فلما عز عليهم الأمر ذهبوا الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وحدثوه بالأمر ، فسألهم عنه وعن حاله مع أهله ، فأخبروه أنه كان غير بار بأمه .

ويقول رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لهذه الأم سامحى ابنك انه يعالج سكرات الموت ولا يمكنه النطق بالشهادة،فقالت ياسيدى يا رسول الله لم يكن بارا بى لقد أحسنت اليه وأحسن هو الى امرأته وأولاده وتركنى .... عند هذا الحد قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأصحابه اجمعوا حطبا حتى نحرق هذا الابن العاق لأمه .... وينطق قلب الأم تنطق الرحمة الندية الأبدية رحمة الأمومة التى لا ترتبط بردود فعل الأبناء .... يا رسول الله . أتحرق ابنى أتحرق فلذة كبدى نعم . لأنه لم يحسن اليك ... يا رسول الله لقد سامحته ....

---

(١) يراجع صحيح البخارى .
ويراجع سنن ابن ماجه .

وينطق الابن بالشهادة ويسلم روحه الى بارئها يالها من رحمة وكيف لا وهى رحمة الأم بابنها ... انها رحمة المرأة بمولودها . ذلكم المولود الغارق فى النسيان ، وكان هذا النسيان قد كتب على الناس جميعا الا من رحم الله ... وقليل ما هم . قليل ما هم هؤلاء الذين لا ينسون وصية الله تعالى .. « ولا تقل لها أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

« ووصينا الانسان بوالديه احسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها .. » يا لهذا الحب السماوى المتجسد فى حنان الأم ورعايتها وعطفها ومحبتها لمولودها بل وأزهار كل بستان الحياة .... من أجل هذا كانت الجنة تحت قدمها ...

يا لهذه المنزلة العظيمة التى أنزلها الله تعالى للأم ، للمرأة الحنون العطوف .

وهذا هو رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يؤكد ذلك فى مقالته لمعاوية بن جاهمة السلمى ، الذى يقول : « أتيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، انى كنت أردت الجهاد معك أبتغى وجه الله والدار الآخرة . قال : ويحك ، أحية أمك ؟ قلت : نعم . قال: ارجع فبرها .

ثم أتيته من الجانب الآخر فقلت : يا رسول الله . انى كنت أردت الجهاد معك أبتغى وجه الله والدار الآخرة ، قال : ويحك : أحية أمك ؟ قلت : نعم يا رسول الله . قال : ارجع اليها فبرها ... ثم أتيته من أمامه ، فأعدت ما قلت ، فقال : ويحك : الزم رجلها فثم الجنة(١) .

---

(١) فى رواية الاستيعاب فى معرفة الاصحاب لابن عبد البر ج ٢ ص١٤١٣ أنه صلى الله عليه وسلم قال : « فالزمها فان الجنة تحت قدمها »

وما المرأة التى نتحدث عنها هنا ذلكم المخلوق الرحيم سوى هذه الأم لكل مولود على ظهر الأرض •

ان لم تكن الأم فهى البنت تلكم الرقيقة الضعيفة الحانية على أبيها التى لا تفتأ أن تذكره بالمعروف والعرفان بالجميل ••• انها الريحانة التى نشمها ورزقها على الله •

وان لم تكن الأم أو البنت فهى الزوجـــة تلكم الحبيبة المحبوبة ، التى كم عـــددنا الليالى وناجينـــا القمر ورأينـــا وجهها على صفحته الجميلة الجليلة العالية ، وذلك قبل أن تصل اليه قدم الانسان •

والزوجة التى أعنيها هى تلكم المرأة المسلمة التى تحفظ دينها وبيتها وأمتها • وأمومتها •

التى قال عنها سيد البشرية ، أنها خير متاع الدنيا ، ان رأيتهـــا سرتك وان أمرتها أطاعتك ، وان غبت عنها حفظتك فى عرضها ومالك ••

هى تلكم المرأة التى قيل لها ان أباها مريض وفى لحظات وداعه وبريد رؤيتها ••• فقالت لهم زوجى غائب ولم أكن لأخرج من بيتى حتى أستأذنه •

هى تلكم التى قالوا لها ان أباها قد مات وسيشيع فهلا حضرت وداعه الأخير ••

فقالت لهم زوجى غائب ولم أكن لأخرج من بيتى حتى استأذنه •

ويعلم رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بأمر هـــذه المرأة الزوجة البنت ، فيخبر أن الله تعالى قد غفر لأبيها نظير حفظها لأمـــانة بيتها وزوجها وطاعتها هذا الزوج الغائب ، الذى لم يكن ليضيره أن تذهب زوجه لرؤية هذا الأب المريض أو اوداعه •

لكنها المرأة المسلمة التى تعرف ربها وحقوق زوجها مع برهـــا بأبيها وحبها له وتمزق قلبها عليه ، والله تعالى يغفر لهذا الأب جـزاء ما حفظت هذه البنت •

المرأة ان لم تكن الأم أو البنت أو الزوجة فهى الأخت التى قاسمت أخاها ثدى أمه منبع العطاء ومصدر الرحمة انها المعينة عند الشـدة الأمينة عند الحاجة •••

انها المرأة فى كل مواقعها ومنازلها ذلكم المخلوق الولود الودود هذه هى الصورة السامية للمرأة كما يصورها الاسلام الحنيف منـــة السماء الى الأرض الشريعة الخاتمة المضيئة النيرة لكل من خلق الله ــ سبحانه ــ اذا تمسك بها والتزم أحكامها وأقام تعاليمها ، انه ان فعل ذلك استحق خلافة الله فى أرضه ، أما من فرط وأهمل واستجاب للهوى وضيع فهو محروم من هذا الفضل وذلكم التكريم •

ومن باب ذلك التفريط يأتى الطوفان الجارف والطامة اللامة العامة التى لا تبقى ولا تذر •

ومفتاح مزلاج باب التفريط ، هو أقـلام هؤلاء الوضعيين من المفكرين الذين زينوا للمرأة ــ ذلك المخلوق الودود الولود ــ البعـد عما فيه تكريمها وعزتها وصيانتها ، زينوا لها ذلك بكل الألوان والصور، وهم فى ذلك ورثة ابليس ، الذى حسـد أبوانا على الجنـة ، وهؤلاء الوضعيون أنفسهم مخدوعون زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وما كانوا مستبصرين لأنهم لو أبصروا وتلمسوا الحقيقة لوجدوها أمـام أعينهم ، لكنهم أغلقوا أعينهم وأغفـلوا عقولهم حين زين لهم الشيطان لهم أعمالهم •

ويا حسرتهم يوم يسخر منهم الشيطان وهم فى ضياع • وان ذلك لآت ان لم يكن واقع وما خفى فهو أعظم •

حين تتكشف الحقيقة المرة ويغرس هؤلاء الوضعيون أقلامهم فى أفواههم وعيونهم حسرة وندامة ولات ساعة مندم • « وقال الشيطان لما قضى الأمر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى انى كفرت بما أشركتمونى من قبل ان الظالمين لهم عذاب أليم »(١) •

« اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب : وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار »(٢) •

فاذا أردنا نجاة من الخضم المغرق فعلينا النظر ببصائرنا قبل أبصارنا الى مرفأ الهداية فى هذه اللجة اللجوج والظلمة المدلهمة الظلماء وليس ببارقة أمل فى نجاتنا الا اذا استجبنا الى النداء القدسى ووجهنا وجوهنا الى النور الربانى وفتحنا قلوبنا فغسلناها بالبرد السماوى وطهرناها بماء الحياة استجابة لنداء المحى الباعث الرشيد « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون »(٣) •

كل ذلك شريطة أن تصحبنا فى عودتنا هذه الى بر السلامة وشاطىء الايمان والأمان شقيقة حياتنا المرأة ذلك المخلوق الودود الولود التى بامكانها أن تساعد ركب الايمان على أن تمخر سفنه خضم العباب ولن تستطيع ذلك الا اذا سلكت سبل ربها ذللا •

---

(١) الآية ٢٢ من سورة ابراهيم
(٢) الآيتان ١٦٦ ــ ١٦٧ من سورة البقرة •
(٣) الآية ٢٤ من سورة الأنفال •

واستجابت لنور هديه واستمسكت بعرى دينها الوثيقة وفكرت مليا فى كل ما يوجه اليها من دعوات .. فاختارت منها ما يوافق طبيعتها التى خلقها الله عليها .. وأعدها اعدادا خاصا يلائم ما سيناط بها من أمور تنشئة الأجيال واعدادها وحمايتها من كل سوء أو انحراف فهى التى ستعايش الأجيال ، أما آدم فقد أناط الله به السعى على المعيشة « فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى »(١) .

ان الله تعالى قد حدد وبين لكل ما هو منوط به ومعقود عليه ومكلف بحمله ، أمانة دائمة الى يوم الدين .

والله تعالى هنا قد بين لآدم أنه ان خرج من الجنة فعليه السعى على معيشته هو ومن يعوله ، هذا قدرك يا آدم ... الذى أعدك الله له .... السعى المضنى على العيش لك ولمن معك ... ان من يعده الله تعالى لمهمة ، لا يستطيع غيره أن يقوم بها والأدلة المادية قائمة على تصديق ذلك فى كل ما لدينا ...

ان ما يعد من المركبات للسير فى الطرقات الممهدة السهلة لا يستطيع عبور الجبال الوعرة والوهاد والأنهار .

ولا يعد ذلك عيبا فى هذه المركبات ..... أو أنها أعدت لما يناسبها من عمل وجهزت لما ستؤديه ...

اذا كان الأمر كذلك فاننا لو كابرنا وحاولنا السير بها فى الوهاد أو القفار لتعثرت واستهلكت وتلفت وكان عاقبة أمرها خسرا .

---

(١) الآية ١١٧ من سورة طه .

مهما تحملت وجالدت وصابرت وكابرت فانها لا تستطيع مواصلة الرحـــلة ...

قد يقودها البعض المتهور قليل الخبـــرة ولكن الى متى ستصبر وتصـــابر ...

اذا جـــاز ذلك بالنسبة لبعض الآلات فانه غير مقبول من المخلوقة الرقيقة الولود الودود .....

يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة(١)..

يا أيتهـــا الولود الودود لا يغرنك ما يزينـــه الغواة لقد ســـبقهم ابليس وأقسم أنه لمن الناصحين . وماذا كانت العاقبة . « فوســـوس لهما الشيطان .... وقال ما نهاكما ربكما عن هـــذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور »(٢) .

والعاقبة معروفة ..

ألا يكفيك ما فعله بك هؤلاء الأبالسة ...

لقد أخرجوك من حصنك الحصين ... وأنزلوك عن عرشك المكين . وخلعوا عنك هذا التاج الذى ألبسه ايك رب العالمين ...

لقد جعلوك أجيرة بعد أن كنت ملكة متوجة على عرش صولجانه بيدك وحدك لا ينازعك فيه غيرك لقد صنعوا منك مرؤسة يرضى عنك كل من تعطيه ما يهوى اختاروا لك من الأعمال ما يشـــبع رغبتهم ويرضى

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الأعراف .

(٢) الآيات ٢٠ ـ ٢٣ من سورة الأعراف .

غرورهم ... امتصوا رحيقك ثم لم يتوانوا فى سحقك بأقدامهم حين ينضب الرحيق وتذبل الزهرة ...

أين هذا من عرشك الذى توجك الله عليه وكلما كبرت وتقدمت بك السنون ازدادوا فى احترامك وتثبيتك فوق هذا العرش المتوج .

« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا »(١) .

أيتها الأم الوقورة أيتها الزوجة المرقيقة الرفيقة أيتها البنت الحبيبة أيتها الأخت العزيزة أيتها المسلمة الفاضلة أيتها المرأة الودود الولود .

أما آن لك أن تقولى لهؤلاء وأولئك كفوا أقلامكم فالله قد حدثنى وصفانى وطهرنى وما كنت مخالفة له أمرا ، كيف وهو الذى خلقنى بيده .... وحتى تبدو لك الحقيقة واضحة ان كان هناك ما يخالج صدرك أو ما يستميل به الأبالسة فؤادك فهذه صورتك عندهم وها أنت تقفين على معاملاتهم لك وآرائهم فيك على مر العصور والأزمان . وأنت بالخيار ... ولن أضيف سوى قول الله تعالى .. « من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها . ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا(٢) ...

وفى هذه السطور التى أسهم بها مع غيرى فى الكتابة عن المرأة من وجهة النظر الوضعية وفى المنظور الاسلامى أقدم دراسة موجزة

---

(١) الآيتان ٢٣ ـ ٢٤ من سورة الاسراء .
(٢) الآية ١٥ من سورة الاسراء .

وتناولا مختصرا لما تحدث به الوضعيون عن المرأة وتصورهم لها من الناحيتين الجسمية والنفسية ثم أوردت صورا من وضع المرأة فى المجتمعات الوضعية عبر التاريخ ومقولاتهم حولها فى مواجهتها ومن وراء ظهرها وتلاعبهم بعقلها وعاطفتها وكأنها دمية محببة لهم ، لكنها لا تعدو كونها دمية .. يلعبون بها فى منتدياتهم وأجهزة أعلامهم .

وبعد هذا أقدم صورة المرأة ومكانتها فى المنظور الاسلامى من خلال ما جاءت به الشريعة الاسلامية وبينته ، متناولا بعض القضايا التى كثيرا ما يحاول أولئك الوضعيون اثارتها قديما وحديثا وحتى تقوم الساعة بقصد اثارة هذه الودودة الولودة ودفعها للتمرد على تعاليم دينها وشريعة ربها .

أرجو من الله تعالى العون والرشاد فان وفقت فمن عند الله تعالى توفيقى وان كانت الأخرى فلست غير انسان محدود القدرات ظاهر الضعف « وخلق الانسان ضعيفا » .

وانى فى كل ما أكتب واسطر اسـتلهم ربى وأطلب منه الهداية والتوفيق ...

« ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب » .

د / منصور الحفناوى